بسم الله الرحمن الرحيم

منهج الإسلام في مواجهة الاحتجاج بالقدر على المعائب

إعداد

د/ أنفال بنت يحيى إمام محمود

أستاذ مساعد (متعاون) تخصص عقيدة

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن الإيمان بالقدر خيره وشره هو نظام التوحيد، وهو أحد أركان الإيمان؛ وقاعدة أساس الإحسان، كما أن الاتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره، والاستعانة بالله عليها هو نظام الشرع، ولا ينتظم أمر الدين ولا يستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامتثل الشرع كما قرر النبي ﷺ الإيمان بالقدر ثم قال لما قيل له: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: "لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له"[١] [٢].

وأصل انحراف الفرق وضلالهم في مسائل القدر عجزهم عن الإيمان بالشرع والقدر جميعًا؛[٣] وعند ذلك انقسموا إلى ثلاثة أصناف:

١ –قدرية مجوسية تكذب القدر وتنفيه، وتُثبت الأمر والنهي.

٢- قدرية مشركية تثبت القدر، وتكذب بالأمر والنهي، فتدفع الأمر والنهي بالقدر، كما قال المشركون: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام:١٤٨]

٣-قدرية إبليسية تصدق بالأمرين، لكن ترى ذلك تناقضًا مخالفًا للحق والحكمة، فتطعن على الرب وتخاصمه في جمعه بين القضاء والقدر والأمر والنهي، كإبليس[٤].

---

(١)مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، ٤/٢٠٤٠-٢٠٤١.
(٢) انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول، الحكمي، ٣/ ٩٥٢.
(٣) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١٣/ ٤٨.
(٤)انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٢/٣٠٠-٣٠٢، الاستقامة، ابن تيمية، ٣٠٨.

فاشتركت القدرية المشركية والقدرية الإبليسية في الاحتجاج بالقدر وشهوده عند المعائب والذنوب!

ولما كان شهود القدر والاحتجاج به على المعائب قدح في أصل الشرع ومحاربته (ومخاصمة لله تعالى في أمره وشرعه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه، وطعن في حكمته وعدله، وانتقاد عليه في إرسال الرسل وإنزال الكتب، وخلق الجنة لأوليائه المصدقين بها، وخلق النار لأعدائه المكذبين، ونسبة لأحكم الحاكمين وأعدل العادلين -الحكيم في خلقه وشرعه، العدل في قوله وفعله وحكمه- إلى العبث والظلم في ذلك كله) [٥].

جاءت هذه الورقة العلمية والتي يتضح من خلالها أقسام الاحتجاج بالقدر، وأحكامه، والرد على من احتج بالقدر على الذنوب والمعائب.

فحوت محورين:

المحور الأول: أقسام الاحتجاج بالقدر وأحكامه.

المحور الثاني: منهج الإسلام في الرد على من احتج بالقدر على المعاصي والمعائب.

المحور الأول: أقسام الاحتجاج بالقدر وأحكامه:

١-الاحتجاج بالقدر على الشرك والكفر والامتناع من الطاعة، والتهاون في ارتكاب المحرمات، في الحال أو المستقبل؛ كأن يرتكب فعلاً محرمًا أو يترك واجبًا فيلومه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره، فيحتج بالقدر ليدفع اللوم عن نفسه مع إصراه على المعصية واستمراره عليها. **حكمه: محرم، مذموم، منهي عنه،** وهو من صنيع إبليس حين احتج على ترك أمر الله له بالسجود بقضائه فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩﴾ [الحجر:٣٩]، ومن صنيع المشركين أعداء الرسل، فقد احتجوا على شركهم بالقدر قال تعالى عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام:١٤٨].

٢-الاحتجاج بالقدر عند وجود المخاوف المزعجة ووقوع المصائب، ووقوع المكروه، وفوات المحبوب، بعد الاجتهاد وبذل الأسباب، فيحتج بالقدر على وجه الإيمان به، والتوحيد لله، والتوكل عليه، والنظر إلى

---

(٥)معارج القبول، الحكمي، ١١٢١/٣.

سبق قضائه وقدره، والعلم بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ تسلية للنفس وتصبيرًا لها. **حكمه: محمود مأمور به،** قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١]، ومن ذلك احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، فموسى عليه السلام لام آدم عليه السلام لكونه أخرج نفسه وذريته من الجنة بالذنب الذي فعله، فأجابه آدم بأن هذا كان مكتوبًا علي قبل أن أخلق.. قال النبي ﷺ: "فحج آدم موسى"[٦] وذلك لأن ملام موسى لآدم لم يكن لحق الله وإنما كان لما لحقه وغيره من الآدميين من المصيبة بسبب ذلك الفعل، فذكر له آدم أن هذا كان أمرًا مقدرًا لا بد من كونه، والمصائب التي تصيب العباد يؤمرون فيها بالصبر؛ فإن هذا هو الذي ينفعهم. وأما لومهم لمن كان سببًا فيها فلا فائدة لهم في ذلك، وكذلك ما فاتهم من الأمور التي تنفعهم، يؤمرون في ذلك بالنظر إلى القدر، وأما التأسف والحزن فلا فائدة فيه، فما جرى به القدر من فوت منفعة لهم أو حصول مضرة لهم فلينظروا في ذلك إلى القدر).[٧]، ولذلك حث النبي ﷺ العبد على فعل العبد ما يقدر عليه من الأسباب النافعة في دينه ودنياه، ثم أرشده إن لم يحصل له مراده بعد اجتهاده، أن يشهد القدر ويطمئن إليه؛ ليسلي نفسه ويريح قلبه، فقال ﷺ: "احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل"[٨].

٣- الاحتجاج بالقدر على نعم الله الدينية والدنيوية، من تيسير فعل الخير، والطاعات، وإعانته عليها، **حكمه: محمود، مأمور به،** فإنه يوجب للعبد شهود منة الله عليه، بسبق قدره وإحسانه.[٩]

٤-الاحتجاج بالقدر بعد التوبة من الذنب، وترك معاودته، على وجه التوحيد لله والبراءة من الحول والقوة، **حكمه: جائز نافع**. وعليه حمل بعض أهل العلم حديث احتجاج آدم موسى عليهما السلام[١٠].

٥- الاحتجاج بالقدر والعذر به في أخطاء الخلق في حق العبد الخاص، **حكمه: جائز محمود فاعله،** [١١] فعن عن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ وأنا ابن ثمان سنين خدمته عشر سنين فما لامني على شيء قط أتى فيه على يدي، فإن لامني لائم من أهله قال: "دعوه فإنه لو قضي شيء كان"[١٢]. فقد عذر ﷺ أنس بالقدر في التقصير في حقه.[١٣].

وبهذا يتبين أن الاحتجاج بالقدر منه ما هو محمود حث عليه الشارع ومدح فاعله، ومنه ما هو مذموم، حرمه الشارع وذم فاعله، ومن هنا يأتي الكلام على المحور الثاني.

---

(٦)البخاري، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، ١٢٦/٨، مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٢٠٤٢/٤.

(٧)مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١٠/ ٥٠٥.

(٨)مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ٤/ ٢٠٥٢. وانظر: الفتاوى السعدية ٨٠-٢٨.

(٩)انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٣٢٧-٣٣٢، الفتاوى السعدية، ٨١.

(١٠)انظر: شفاء العليل، ابن القيم ١/ ٩٤، الفتاوى السعدية، ٨١.

(١١)انظر: درء التعارض، ابن تيمية، ٤٢٠/٨.

(١٢) مشكاة المصابيح، التبريزي، ١٦١٩/٣، انظر: درء التعارض، ابن تيمية، ٤٢٠/٨.

(١٣)انظر: فقه الابتلاء، وأقدار الله المؤلمة، أبو فيصل البدراني، ٤، شفاء الضرر بفهم التوكل والقضاء والقدر، أبو فيصل البدراني ٩.

المحور الثاني: منهج الإسلام في الرد على من احتج بالقدر على المعاصي والمعائب:

إن الإيمان بالقدر مرتبط بامتثال الشرع، كما أن امتثال الشرع مرتبط بالإيمان بالقدر، وانفكاك أحدهما من الآخر محال[١٤]، وقد جاءت النصوص الشرعية بالإنكار على من احتج بالقدر لدفع الشرع ومعارضته وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: أبطل الله تعالى في كتابه حجة من احتج بالمعاصي على القدر،(حيث قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام:١٤٨-١٤٩]، **فتضمنت هاتان الآيتان: أن الاحتجاج بالقدر على المعاصي باطل من وجوه:**

منها: أن هذا هو احتجاج المشركين.

ومنها: أن هذا الاحتجاج بالقدر على الشرع، لم يمنعهم من عذاب الله. حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ [الأنعام:١٤٨].

ومنها: أن الله وبخهم على ذلك، وطالبهم بالبرهان في قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام:١٤٨]. فنفى عنهم العلم وأخبر أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا.

ومنها: أنه أخبر أن له الحجة البالغة على جميع من تجرأ على معاصيه. فمن احتج على المعاصي فهو أظلم الظالمين).[١٥]

ثانيًا: بيّن النبي ﷺ أن الاحتجاج بالقدر في ترك امتثال الأمر من باب الجدل، ففي حديث علي رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة - رضي الله عنها - بنت رسول الله ﷺ، فقال لهم: "ألا تصلون؟"، فقال علي: فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قال له ذلك، ولم يرجع إليه شيئًا، ثم سمعه وهو مدبر، يضرب فخذه وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكهف: ٥٤] "[١٦]. يقول شيخ الإسلام رحمه الله معلقًا على الحديث:(هذا الحديث نص في ذم من عارض الأمر بالقدر، فإن قوله: إنما أنفسنا بيد الله إلى آخره.

---

(١٤) معارج القبول، الحكمي، ١١٢١/٣.

(١٥)الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، السعدي ، ١٩-٢٠.

استناد إلى القدر في ترك امتثال الأمر، وهي في نفسها كلمة حق، لكن لا تصلح لمعارضة الأمر بل معارضة الأمر فيها من باب الجدل المذموم الذي قال الله فيه:﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤]) [١٧].

ثالثًا: أن النبي ﷺ لما بيّن أن سبق المقادير والقضاء والقدر أمر بالعمل ونهى عن الاتكال على القدر، فعن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ، ذات يوم جالسًا وفي يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال: "ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار" قالوا: يا رسول الله فلم نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: "لا، اعملوا، فكل ميسر لما خلق له" ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الليل: ٥-٦]، إلى قوله:﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ١٠]" [١٨].

رابعًا: أن الصحابة رضي الله عنهم لم يقبلوا حجة من احتج بالقدر على ارتكاب المعاصي، بل أقاموا الحدود والشرائع، مع إيمانهم بالقدر، فقد ذكر (أن رجلا سرق فقال لعمر: سرقت بقضاء الله وقدره، فقال له: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره) [١٩]، فعبدوا الله بأمره وقدره، وتوكلوا عليه في تنفيذ أمره بقدره، ممتثلين لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وقوله:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥]. [٢٠]

وقد بيّن علماء الإسلام أن الاحتجاج بالقدر باطل في فطر الناس وعقولهم، [٢١](فهذا المحتج بالقدر، المقيم لعذر نفسه على ربه، هو يكذب نفسه بنفسه، فإنه لو تجرأ عليه أحد بتعد على ماله أو بدنه أو محبوباته، واعتذر بالقدر لم يقبل عذره، فكيف

([١٦])البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤]، ٩/ ١٠٦، مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، ١/ ٥٣٧.

([١٧])مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٨/ ٢٤٤.وانظر: منهاج السنة، ابن تيمية، ٨٥/٣.

([١٨])البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الليل: ٥]، ٦/ ١٧٠، مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، ٤/ ٢٠٤٠.

([١٩])منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ٣/ ٢٣٤.

([٢٠])انظر: شفاء العليل، ابن القيم، ٨٥/١.

([٢١])انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٣٢٣/٢.

يقبل عذر نفسه على تجرئه على ربه؟! فالمحتج بالقدر على المعاصي: يكذبه الكتاب والسنة والعقل، وضميره .. وإنما يقصد باحتجاجه دفع الشناعة عن نفسه".[٢٢]

وبهذا يتبين أن قول المحتجين بالقدر على المعاصي والمعائب فاسد في العقل كما أنه كفر في الشرع وأنهم كذابون مفترون في قولهم: إن القدر حجة للعبد[٢٣].

الخاتمة:

إن الواجب على العبد أن يؤمن بخلق الله وأمره، وقضائه وشرعه؛ فيجمع بين القدر والشرع، ويعتقد عدم تعارضهما، وعلى العبد أن يدفع ما قدر من الشر بما قدر من الخير، فهو مأمور بأن يدفع ما قدر من المعاصي بما يقدر من الطاعة، فينازع المقدور المحظور بالمقدر المأمور لله، وهذا دين الله الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين،(وقد أمرنا الله سبحانه أن نزيل الشر بالخير بحسب الإمكان ونزيل الكفر بالإيمان والبدعة بالسنة والمعصية بالطاعة من أنفسنا ومن غيرنا، فكل من كفر أو فسق أو عصى فعليه أن يتوب، وإن كان ذلك بقدر الله، وعليه أن يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر بحسب الإمكان، ويجاهد في سبيل الله. وإن كان ما يعمله من المنكر والكفر والفسوق والعصيان بقدر الله ليس للإنسان أن يدع السعي فيما ينفعه الله به متكلاً على القدر بل يفعل ما أمر الله ورسوله) [٢٤].

وبعد فإن من أهم النتائج المستخلصة من هذه الورقة العلمية ما يلي:

([٢٢])الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، السعدي، ٢٠. وانظر: شرح ثلاثة الأصول، ابن عثيمين، ١١٢-١١٥.

([٢٣])مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٨/ ٢٦٣-٢٦٤.

([٢٤])مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٨/ ٥٤٧-٥٤٨.

النتائج:

١- أنه لا ينتظم أمر الدين ولا يستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامتثل الشرع.

٢- أن أصل انحراف الفرق وضلالهم في مسائل القدر عجزهم عن الإيمان بالشرع والقدر جميعًا.

٣- أن القدرية المشركية والقدرية الإبليسية اشتركتا في الاحتجاج بالقدر وشهوده عند المعائب والذنوب!

٤- أن شهود القدر والاحتجاج به على المعائب قدح في أصل الشرع ومحاربته.

٥- أن الاحتجاج بالقدر منه ما هو ممنوع مذموم، ومنه ما هو محمود مأمور به.

٦- أن احتجاج بالقدر على الذنوب والمعاصي يُنافي التوبة إلى الله منها، ويعتبر خللاً في العقيدة، وقد ينقل العبد من دائرة الإسلام إلى دائرة الشرك والكفر.

٧- إن الاحتجاج بالقدر على المعاصي يبطله السمع والعقل والفطرة والواقع.

التوصيات:

١- ضرورة دحض زعم الحداثيين في ادعائهم أن الإيمان بالقدر مثبط عن العمل.

٢- بيان أن النظر إلى القضاء والقدر يبعث على الجد والاجتهاد، فإن العبد إذا علم أن الله قدر الوصول إلى المطالب بالأسباب المأمور بها جد واجتهد.

٣- ضرورة تربية النشء على الترابط بين الإيمان بالقدر والامتثال للشرع، وأن الإيمان بأحدهما وإنكار الآخر، أو المعارضة بينهما باطل وضلال.

٤- ضرورة التفريق بين ما يصح فيه الاحتجاج بالقدر ويحمد، وبين ما لا يصح فيه الاحتجاج بالقدر بل يذم ويعاقب.

وصلى الله على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد رب العالمين.